ثالثا: رواد علم الاجتماع

تعني كلمة "رواد " إلى أولئك المفكرين والباحثين الذين كان لهم تأثير واضح في نشأة وتطور علم الاجتماع ، وبلورته موضوعا ومنهجا ووظائف،وتوجيه كل هذه العناصر والعمليات وجهت، وأخرى مازالت قيد التنظير من طرف السوسيولوجي المعاصر وما يحتويه من اتجاهات؛

سنحاول في هذا المقام التطرق لرواد علم الاجتماع الذين أسسوا وساهموا في تطوير هذا العلم ، بدءا بابن خلدون، ثم أوجيست كونت، سبنسر، إيميل دوركايم ، بارسونز، فيبر و كارل ماركس، من خلال تسليط الضوء على اسهام كل مفكر في علم الاجتماع من حيث الموضوع أو المنهج أو الاستخدامات.

01- إبن خلدون (1332- 1406 م)

أ- نشأته وأهم مؤلفاته:

هو عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ولد في تونس وشب فيها وتخرّج من **جامعة الزيتونة**، درس العلوم الشرعية واللسانية والمنطق والفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضية شغل أعلى المناصب فكان كاتب السر وخطة المظالم ووزيرا وحاجبا وسفيرا ومدرسا وقاضيا وخطيبا والوساطة بين الملوك في بلاد المغرب والأندلس، ثم انتقل إلى مصر حيث قلده السلطان برقوق قضاء المالكية، ثم استقال من منصبه وتوجه إلى التدريس والتصنيف فكانت مصنفاته من أهم المصادر للفكر العالمي، ومن أشهرها كتاب (**العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)** في سبع مجلدات أولها الكتاب المشهور**"المقدمة"**، وعرض فيه أحوال البشر وطبائعهم والمؤثرات التي تميز سلوكاتهم، توفي وعمر ستة وسبعين عامًا ودُفِنَ قرب باب النصر بشمال القاهرة، تاركاً تراثاً ما زال تأثيره ممتداً حتى اليوم.

ب- تأسيسه لعلم العمران البشري:

ويعني **"علم العمران البشري"** الذي جاء به **"ابن خلدون"** الاجتماع الإنساني وظاهرته، وهو يصوغ موضوع هذا العلم من خلال قوله أن الاجتماع الإنساني ضروري، ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بطبع، أي لابد من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى **العمران**.(عبد المعطي، 1981، 55)

يقول **"ابن خلدون"** أن ما سيكتب فيه شيء مستقل بذاته فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي: بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال الذاتية واحدة بعد أخرى، وها شأن كل علم من العلوم وضعيا كان أم عقليا، وإن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غزير الفائدة عثر عليه البحث وأدى إليه الغوص...وكأنه علم مستنبط النشأة ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة. (**عبد الجواد، 11**)

ت- ضرورة الاجتماع الإنساني:

حيث يرى "ابن خلدون" أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحقيق حاجاته، ومن ثمة فتحصيل الحاجات يعد حجر الزاوية في الاجتماع الإنساني وضرورته، ويضيف أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته في معاشه، وأن الناس متعاونون جميعا في عمرانهم، ومعنى هذا أن الحاجة والعمل مقولتان أساسيتان للوجود الإنساني وبدونهما يستحيل وجود مجتمع بشري.

ث- تغير العمران حقيقة أساسية:

فأحوال العالم والأمم وعوائدها لا تدوم على وتيرة واحدة، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، ويرجع ذلك لعوائد السلطان، كما يقال في الأمثال " الناس على دين ملوكهم"؛

وأوضح ابن خلدون التغير الذي طرأ على العمران البشري من المجتمع البدوي إلى المجتمع الحضري، حيث يعتبر البدو هم سكان الصحراء الذين يعيشون حياة متنقلة، ويعتمدون في مصدر رزقهم على تربية الماشية، وحضارة البدو هي حضارة عربية في أصلها،أما الحضر من الناس فهم سكان الحضر هم قاطنوا المدن والرّيف والقرى، ويقتصر البدو في معيشتهم وأحوالهم على الضروري، فهم عاجزون على ما هو أكثر من ذلك، في حين يعتني أهل الحضر بحيازة الرفاهيات والكماليات في الأحوال والعوائد، ومن هنا فإن الحضري لا يتوق إلى حياة البادية إلّا لحاجة أو ضرورة تدعو إلى ذلك، كما يعتبر البدو أصلٌ للحضر

ج- العصبية عند ابن خلدون:

أو العصبة التي يقصدها " **ابن خلدون**" لا تعني مطلق الجماعة وإنما الأفراد الذين تجمع بينهم رابطة الدم أو رابطة الحلف أو الولاء بالإضافة إلى شرط الملازمة بينهم من أجل أن يتم التفاعل الاجتماعي ، وتبقى مستمرة ومتفرعة بوجود هؤلاء الأفراد واستمرار تناسلهم ، فينشأ بين أفرادها شعور يؤدي إلى المحاماة والمدافعة وهم يتعصبون لبعضهم حينما يكون هناك داع للتعصب ، ويشعر الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من أهل عصبته ، وفي هذه الحالة يفقد شخصيته الفردية بحيث تذوب في شخصية الجماعة ، وهو شعور جماعي مشترك لدى أفراد العصبة فهو ذو صبغة جمعية أساسية بين الفرد والمجموعة ، وليس بين فرد وآخر فقط ، وفي حال تعرض العصبة إلى عدوان فيظهر في هذه الحالة "الوعي" بالعصبية ، وهذا " الوعي العصبي" هو الذي يشد أفراد العصبة إلى بعضهم وهو ما يسميه **ابن خلدون** " بالعصبية " التي بها تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يُجتمع عليه، حيث تشتد وتقوى هذه الرابطة بين سكان البدو وتفتر بل وتتلاشى عند سكان الحضر.

ح- الحضارة والدولة:

عرّف ابن خلدون الحضارة بأنّها "تفنّن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله"، كما إنّه عرّفها ضمن الإطار الاجتماعي والتاريخي بأنّها الوصول إلى قمّة العمران والتطوّر الثقافي والشخصي للمجتمع والدخول للرقي الاجتماعي الثابت، فالحضارة بوجهة نظره هي نهاية العمران، بيد أنّ "ابن خلدون" تأثّر في ثقافة عصره وألفاظها التي تختلف عنها الآن، وقد يكون غير دقيق أحياناً في المصطلحات والمفاهيم ويبرز ذلك عنده في لفظ "**الحضارة**" حين يستعمل لفظ "**دولة**" بمعنى الحضارة، بيد أنّ ذلك عائد للمصطلحات واختلافها بين العصور فهو لم يتوقع أن تتطوّر اللغة وتختلف من عصر لآخر، ومع ذلك يُعتبر **ابن خلدون** أوّل من استخدم مصطلح الحضارة بمفهومه القريب من معناه حديثاً. (https://mawdoo3.com)

ويؤكد "**ابن خلدون**" أن تأسيس الدولة يسبق دائما تأسيس المدينة، فتكوين الدولة لازمة طبيعية لعمل العصبية، يؤكد حتما إلى العمران الحضري (الحضارة)، فارتقاء شيخ القبيلة وتفوقه على غيره يدلان على انتقال من طريقة إنتاج إلى أخرى تختلف عنها اختلافا كليا، يقول ابن خلدون "أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ بنوعه لوجودها، وقد تقرر في علوم الحكمة أنه لا يمكن انفكاك أحدهما عن آخره... "، ويكون من الخطأ أن نفكر في أن الانتقال من العمران البدوي إلى العمران الحضري انتقال خطي وسريع، وهو صريح جدا بهذا الشأن إذ يقدم لنا سلسلة من أطوار التطور ، وعمر الدولة عنده يضاهي عمر الحضارة والتطور الطويل الأمد لا ينطوي دوما على طابع تدريجي وإيجابي من حيث قوة وازدهار العمران ، إذ يمكن أن نمثل ها التطور بمنحنى يتخذ شكل الجرس، فالعمران البدوي يتلاشى تدريجيا خلال الأجيال الثلاثة (جيل البداوة، جيل الحضارة، جيل الترف) التي تمتد حوالي مئة سنة، وحين يصل إلى أعلى نقطة من المنحنى فإنه يكاد يتلاشى تماما ليترك مكانه للعمران الحضري في جميع الميادين، وتستمر هذه المرحلة إلى نقطة انقلاب الجزء المستقيم من الجرس وحينذاك ، يبدأ تقهقر الحضارة وهو أمر لا مناص منه في نظر ابن خلدون حين ينصرف الحاكم عن أمور الرعية ، وهذه الظروف خاصة بشمال إفريقيا كونه يعرف هذه المنطقة حق المعرفة. **(مغربي، 1988، 167-168)**

ج- المنهج عند ابن خلدون:

كان "ابن خلدون" مهتما بالتدوين المنهجي الصحيح والعلمي للأحداث التاريخية، حيث لاحظ أن المؤرخين يقعون في أخطاء كثيرة لأسباب متعددة منها: **(عبد الجواد، 10-11)**

- تعصب المؤرخ لمذهب او طائفة معينة من الحكام أو دولة ما، وهذا ما يقوده إلى تسجيل الوقائع التاريخية حسب هواه وميوله الشخصية.

- أن كثيرا من المؤرخين لا يحكمون العقل والمنطق فيما يصل إليهم وفيما يسجلون من أخبار.
- عدم قياس الغائب عل الشاهد، بمعنى ضرورة أن يقيس المؤرخون الأخبار التي يسمعونها على الأحداث التي يشاهدونها، وبذلك يتجنبون الخطأ.
- الجهل بالقوانين الطبيعية التي يسير عليها الكون، لأن علمهم بها يجنبهم الخطأ.
- الجهل بالقوانين الاجتماعية والمبادئ التي يسير عليها العمران البشري، فالعلاقات الانسانية تسير وفق قواعد وليست عشوائية.

أما ملامح المنهج عنده فتبرز في تركيزه على **الباحث** الذي يجب عليه أن لا يقبل الحقائق إلا بعد التأكد منها، ولا يتأثر بها بل يشكك وينتقد ويصحح وينتقي ويقارن ثم يستنتج، كما أكد على أهمية **منهج المقارنة** بين ماضي الظاهرة وحاضرها ذلك أن العمران متطور ومتبدل، وضرورة وصول علم العمران البشري إلى صوغ القوانين التي تحكم العمران لأن ذلك من أساسيات ووظائف العلم، ونجده أيضا يركز على **الملاحظة العلمية**.

ويمكن أن نفصل في قواعد المنهج العلمي عند "**ابن خلدون**" على النحو الآتي:

- النقد الباطني السلبي، ويقوم على التحري من مصدر الأخبار وطرق التثبت من صدق المؤلف ومن عدم انخداعه ووقوعه في الخطأ والغلط.
- الابتعاد عن التشيع والتعصب للآراء والأحكام المرتجلة والقبلية والالتزام بالجانب الموضوعي في عرض وقائع العمران.
- موسوعية المعرفة عند المؤرخ، إذ عليه الإلمام بقواعد السياسة وطبائع العمران والملك وتاريخ الأمم والاقتصاد في كل الأزمان.
- الشك في الأخبار وصدق المعلومات التي حصل عليها.
- المعرفة العقلية التي توصل إلى المعرفة العلمية وتقطع الشك باليقين.
- العلية، فابن خلدون يرى أن لكل حادث محدث وعلاقة تلازم في الحدوث.
- العمران البشري باعتباره المدخل المنهجي والإطار المعرفي الذي يتم في ضوئه الوصول إلى القوانين العامة للاجتماع الإنساني.